



# «ناس في الظل» وقضية النثر العربي

بقلم صبري حافظ

أجلّ الخدمات وأنّ تعمق طاقاتها على التعبير عن عشرات المعاني الجديدة والاحاسيس الجديدة والانفعالات الجديدة . بل نستطيع ان نجزم بان النماذج الجيدة من نتاج هذه الفنون الجديدة قد أرهفت اللفة ووسعت أفقها وأثرت مفرداتها . غير ان طبيعة الرحلة التاريخية التي قطعها هذه الفنون الجديدة في مسيرتها نحو النضج والتبلور هي التي خلقت من النقد الادبي ذلك التيار الذي افتم نعارضها معجوجا بين اللفة والبنيان الفني . فاذا تحدثنا عن الافصوصة مثلا ، وهو حديث يمكن أن ينطبق مع شيء من التحوير على الرواية والمسرحية ، نجد ان نمش الافصوصة في احضان المقامة لفترة طويلة هو الذي دعا النقد الى خلق ذلك الانفصام بين اللفة الرصينة المشرقة والعمل الافصوصي الناضج . . . وقد ساهم في تعميق هذا الانفصام وتوكيده مجموعة اخرى من العواطف الثانوية منها ان اعمق الكتاب حسا باللفة ، كانوا - لسوء الحظ - أقلهم احساسا بالشكل الفني الوافد وأقلهم اتصالا بنماذجه العالمية الجيدة . وان أكثر الكتاب معرفة بأسرار الشكل الجديد كانوا أقلهم احفاء باللفة واسرارها . وان اتمناذج الجيدة الاولى من القصة القصيرة في مصر ولدت في احضان مترجمين وعنى أيديهم ، وان كسل بعض العارفين بأسرار اللفة والفن القصصي عافهم عن البحث عن اللفة الجديدة الملائمة لهذا الفن الجديد ، دون استعارة لفة المقامة او المقالة الادبية له . لفة فادرة على الوفاء بمتطلبات العمل القصصي وفادرة في الوقت نفسه على الاحتفاظ بصفاء اللفة العربية وخصائصها الاصيلة . لهذه العوامل وغيرها تعمق الانفصام بين اللفة والقالب الفني الجديد . واصبح الاهتمام باللفة عبثا على هذه الاشكال الفنية الوليدة . وظلت اللفة من اهم فضايا الافصوصة المصرية المعلقة دون حل حتى الآن . صحيح ان هنالك اسهامات هامة لبعض كتّاب القصة الكبار في هذا المجال . . غير ان المشكلة ما زالت في انتظار المزيد من الحلول والاستقصاءات .

وليس غريبا أن تثار هذه القضية من جديد مع اكبر اصحاب الاسهامات الهامة فيها في حقل الافصوصة المصرية وهو يحيى حقي ، الذي قدم في قصته المدهشة « الفراش الشاغر » اكمل طرح لقضية اللفة واعظم اسهام في حلها . . اذ قدم في هذه القصة لأول مرة لفة قصصية من الطراز الاول ولفة عربية صافية من الطراز الاول في نفس الوقت . . أقول ليس غريبا أن تثار هذه القضية من جديد مع كتاب يحيى حقي الأخير « ناس في الظل » (٢) ولكنها تثار هنا بشكل جديد . . اذ يطرح هذا الكتاب الجديد قضيتين عامتين قبل القضايا الخاصة التي تشيرها مادة الكتاب وأسلوبه . . أول هاتين القضيتين تتبلور في السؤال التالي : من الذي يستخدم

وجّه النقاد العرب الغدامي ، عند حديثهم عن النثر العربي ، جل اهتمامهم الى الجانب اللغوي فيه . . . سواء من ( نقد النثر ) المنسوب لغدامة بن جعفر او في ( اسرار البلاغة ) و ( دلائل الاعجاز ) لعبد الغادر الجرجاني او في ( سر الصناعتين ) لابي هلال العسكري . وتركز اهتمامهم حول الفضايا اللغوية من قواعد النحو الى الاشتقاق وصيغ الاسماء والافعال الى التشبيه واللمح في احواله المختلفة والرمز والوحي والاستعارة واللفظ والحذف والصرف والمبالغة والقطع والعطف والتقديم والتأخير والاختراع والتقريب . الخ . . وكان هذا الاتجاه هو النتيجة الطبيعية لانصراف النساثرين العرب الغدامي الى العناية باللفة قبل غيرها من الامور . فكنا عني بن ابي طالب وعبد الحميد بن يحيى وعبد الله بن المقفع وابن العميد والصايبي وغيرهم صفحات مشرقة من اللفة الرصينة الصافية ودروس بليغة في صروب المهارات اللغوية التي عدنا بعض نواحيها فسي السطور السابقة .

اما النقاد العرب المحدثون فقد أسقطوا من مجال اهتمامهم هذا الجانب اللغوي في نزوعهم الى التمرد على ما في الذات العربي من فصور وفي حينهم التي تعميق اتصالهم بالنقد الاوروبي الحديث . فقد اغترف نقدنا الحديث من معين انقذ الاوروبي منذ أرسطو حتى احدث النقاد المعاصرين ، دون ان يحاؤل أن يتكئ على هذا النقد الحديث ، وعلى اللمحات المشرقة في نقدنا العربي القديم عند من ذكرتهم أو عند ابن سلام الأجمعي والأمني وابن الانير وغيرهم ليقيم فوق هذا كله صيغة نقدية عربية خالصة ، تهتم بالطبيعة الخاصة للفتنا التليدة في نفس الوقت الذي تهتم فيه بتطويع الاشكال الفنية الوافدة تطبيعنا وفضايانا . فقد اكتفى انقذ الادبي الحديث عندنا بالتركيز على الفنون النثرية الحديثة انوفود الى الأدب العربي . وحاول ان يرسخ القواعد البنائية لهذه الفنون الوافدة من افصوصة او رواية او مسرحية . . دون أن يعير النثر العربي في خدمة اللفة واثرائها التفانا (١) . ربما لان اشتداد عود النقد العربي الحديث فد رافق غياب كتابات الناثرين المحدثين الذين خدموا اللفة وحببوا الى نفوس القراء مثل مصطفى نطفي المنفلوطي وعبد العزيز البشري وعبد الله فكري وحفني ناصف وغيرهم . . كما رافق في نفس الوقت ازدياد انطلع الى اوروبا الحضارة ، ونامى الاهتمام بقنونها الوافدة . حتى تستوعب هذه الفنون نزوع الشخصية المصرية الى الاستقلال والتبلور عب الثورة القومية الكبرى عام ١٩١٩ .

وقد كان باستطاعة هذه الفنون الجديدة ان تخدم اللفة العربية

(١) لا نفوننا هنا الاشارة الى الدراسات النقدية الهامة التي أعادت النظر في وطاعات واسعة من أدبنا القديم على ضوء المناهج النقدية الحديثة . . غير ان تلك قصة اخرى .

(٢) كتّاب الجمهورية ، القاهرة ، يوليو ١٩٧١ .

النثر العربي الآن؟! .. كان من المفروض ان نبادر فوراً عند طرح مثل هذا السؤال فنقول : كتّاب القصة القصيرة والرواية .. غير ان اغلب كتّاب القصة القصيرة عندنا ، حتى الكبار منهم ، مصابون بما يمكن ان نسميه بالعمى اللغوية . وهذه العمى بالاحديسد هي التي تفقد بالكثير من فصصهم الجيدة عن التحليق الى آفاق ابعد من العمق والانسانية وتركها لصيفه الارض عاجزة عن اخصاب الذهن واستثارة الاحساس . ومن هنا لم تستطع القصة ان تستخدم اللغة العربية في مجال انثر كثيرا وبقي الشعر يجاند وحده في هذا المضمار . فقد نجاه التراث الطويل من اتماذج الشعرية الاصيله ومن الدراسات النقدية الضاوية من الوقوع في هذا الشرك . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان احدث الدراسات النقدية عن الشعر لا تسقط ابدا الجانب اللغوي منه ، وترى بعضها ان الشاعر يخدم اللغة قبل ان يستخدمها . بينما يرى البعض الآخر انه يخدمها ويستخدمها معا .

ويحيى حقي مهوم في هذا الكتاب بأن يعيد آتى انثر العربي دوره الهام في خدمة اللغة . طرح وراء ظهره فيسود الشكل الفني للقصة القصيرة وان احتفظ بروحها . وتملص في الوقت نفسه من جفاف المقالة ونجريداتها دون ان يفقد وضوحها واساق افكارها . وانطلق مع تأملاته في اتحية الانسان يصوغها في نفة تجمع بين حرارة الفن ووضوح الفكر آنظري . تتريث عند الكلمات وتنثقي منها ما هو على قد المعنى دون زيادة او نقصان . ولا غرو ، فيحيى حقي صاحب ابرز الدعوات الى اسلوب عربي جديد ، على التحديدس ويعتمد على العين قبل الاذن ، ولا يفقل سلاسة اللغة العربية او ايقاعها . يستعيد من الكلمات العمية المثقلة بالاحداث والمعاني ، الفنية بالتحديدات الحسية الفادرة على ان يجسد بكلمة واحدة مثل « يلق » او « بهج » صورة نابضة بالحركة والحياة ، ينفض التراب عن سحر اللغة الفصحى وعن كنوزها الخبيثة .. فكتابة هذا « ناس في الظل » ينطوي على دروس باهرة في مقدرة اللغة العربية على الخلق والتجسيد ، دروس تتسم بالعفوية والتواضع ، وتناى - استغفر الله - عن أي استعراض للعصلات . تضع يدها بحياء على السر دون ان نتيه عليك به ، فكأنه جاءها عفوا ودون قصد . لا ندل عليك بفضلها ، وهو عظيم ، نقدم لك صفحات البيان المشرق ببساطة وعلى استحياء . دون ان تقع في الرذيلة النفيض وهي الاسراف في التواضع . وليس هذا على يحيى حقي بجديد ، فكتابته كتابة تميزها من بين ألف كتابة اخرى حتى لو لم يوقفها كاتبا العظيم .. نتلاحق فيها الصفات المنتفاة بعناية وحساسيسة لتميز الشيء عن ألف شبيه له . لا تسطيع العين العادية ان تدرك هذا الفارق الطفيف ، ولكن هذا الفارق الطفيف المميز الدال هو اول ما تلتقطه عين يحيى حقي ، تخطفه خطفا بيسر وعفوية ودون عمل او اصطناع . تصف لك عينين في ععدة اسطر فتميزهما عن آلاف العيون التي صادفتك : « ان الذي يستوقفني في هذا الوجه حقا هو عيناه .. مستديران هما ايضا ، كبيرتان واسعتان ، جاحظتان قليلا .. سوادهما كاللحم ، منه جاءت لمة نظره التي تتلألا كالناس . لم أر مثلهما عينين تنطقان بالفرح ، بالحبور .. بالجلد ، كانه ابدا يكتم ضحكة تريد ان تنطق .. نطقان بالرضى عن انفس ، الرضى عن الحياة ، بالسعادة .. طعم الدنيا من فمها لذيق .. اشعاع هاتين العينين يقسل جسدي وروحي ، يفيض عليهما كماء صاف ، براق .. منمش لانه منتفش » . وتحس بقدره العينين تحت ضربات قلم الفنان المقتدر الكبير بالافصاح عن كافة تفاصيل الشخصية وعن قدرة اللغة اذا ما وضعت في ايد خيرة بارعة . ولا يعنى هذا ان الكتاب تجربة في اللغة فحسب ، ولكنه الى جانب هذا تجربة في الحياة . وقبل ان ندلف الى عالم الكتاب علينا ان نتحدث عن

وإذا كانت القضية الاولى التي طرحها هذا الكتاب قضية فنية وجمالية فان القضية الثانية قضية عامة نطلق من الطبيعة النوعية لهذا الكتاب لتشير الى شيء اكبر في واقعنا الثقافي . فالكتتاب مجموعه من اليوميات التي يكتبها يحيى حقي بانتظام في صحيفه « المساء » كل اسبوع . ولدى يحيى حقي من هذه اليوميات كنز كبير ، يريد من يخلص له ويجمعه ويؤبه . فلاكثر من عشر سنوات كتب يحيى حقي مقالة او مقالتين من هذا الطراز كل اسبوع . والقضية التي اريد ان اطرحها نبلور في هذا السؤال : متى تنتبه الدولة الى تكريم كتابنا الكبار؟! .. لا تكريما سقيما بشهادة و « صرة » من النفود وتأنها في القرن العشرين نسير على نهج اخلفاء العباسيين وولاتهم في القرنين الثامن والساسع ، ولكن تكريما يليق بالقرن الذي نحيا فيه . فتصدر أعماله الكاملة في طبعة علمية محففة ومنقحة ومبوبة تاريخيا . تكون مرجعا تاريخيا يساعد الباحث بل ويدعووه الى امعان النظر في الكثير من الاشياء الغائبة عنه . فمن يملك الطافة من الباحثين الافراد الذين تستهلك لكمة العيش وقتهم وجلّ جهدهم ليجمع لنا مثلا معالات طه حسين السياسية التي ملاز بها صفحات مختلف الجرائد طوال اكثر من عشرين عاما؟! .. من يجمع لنا هجائياته المقدمة لحزب الوفد ثم مدانحه المدهشة لنفس آنحزب بعد ذلك بقليل؟! .. من يجمع لنا تجريحه انصاري لسعد زعول ، معالاته في صحف ناصبت بعضها العداء طوال سنين وسنين؟! .. هذا هو طه حسين الذي يجمع انكل على بقدره قدم للتعافه العربية اعظم الخدمات . كرمه الدولة بتسلوب اخلفاء العباسيين ، ولم تقدم له أبسط ما يطلبه منها ضمير العصر . طبعة كاملة محففة نكل مبا كتب .. ناهيك عن اعداد بيبلوغرافيا كاملة بكل كلفه كتبها وكسل كلمة كتبت عنه .. بكل مقالة او كتاب ورد فيها اسمه بالخير او الشر ، فهذا روف . متى تنتبه الدولة عندنا فتجمع هذه الكنوز لعشرات الكتاب ؟ لقد نشأ جيل جديد لا يعرف حقيقة كتّابه الكبار لانه لم يعاصرهم ، ولا يستطيع ان يعرف حقيقتهم ، وليس تحتديده سوى ما ارادوا هم نشره عن انفسهم ، وهو اقل بكثير مما ارادوا اخفاه في بعض الحالات .

اقول هذا بمناسبة صدور هذا الكتاب اهتم ليحيى حقي « ناس في الظل » الذي يحوي على اكثر من عشرين معالة من يومياته التي نستطيع لو جمعت ان تخرج لنا في اكثر من عشرين كتابا من هذا الطراز . ويحيى حقي من الكتّاب الذين كرمتهم الدولة بالجائزة التقديرية ، ومع هذا فتراته الادبي كالقطع النادر لا تستطيع العثور على أي منه .. يومياته المدهشة الفريدة مبشرة في صفحات الصحف، ننظر آيد التي تمتد اليها وتنفض عنها تراب السيمان . نحن الذين سنستفيد من هذه اليوميات أجلّ الفائدة . سنتعلم منها الكثير لان يوميات يحيى حقي قطع ادبية نادرة .. فقد آتى على نفسه منذ عهد اليه بكتابتها ان يقدم شيئا منفردا يميز بطابع ادبي خالص . لا يسف من ملاحقة الاحداث الطارئة والمشكلات العامة الفافعة .. كنقص الكبريت او انفجار ماسورة شبرا او ازدحام الشوارع بالمطبات كما يفعل كتّاب اليوميات الصحفية . وتكنه يجعل من اليوميات مدار تأملاته في الادب وفي اللغة وفي الانسان . يستفيض بها عن القصة القصيرة التي هجرها وعن النقد الادبي الذي تركه جانبا . يأتي اليها مسلحا ببصيرة الفصصي اتفادرة على اكتشاف الجوهر خلف المظهر والثابت خلف العرضي ، ويتوفد الفنان الذي بيت في الاشياء الروح والحياة . وبوعي الناقد الذي يهب الاشياء ابعادها واعماقها . وبوله العاشق المتيم في حب مصر المهوم بقضاياها

التاريخية والسياسية . ومن هنا اكتسبت هذه اليوميات أهمية فائقة . وكانت في حاجة الى من يجمعها ويكف عليها حتى يستخرج منها الكثير .

وكتاب يحيى حقي « ناس في الظل » يضم مجموعة متجانسة من هذه اليوميات تدور حول اناس الظل بتنوعياتهم المختلفة ، وحول الافاق البكر التي ما زالت في الظل ، وحول العوالم البكر التي لا بد ان تتحرك بعيدا عن الظل . . حول هذه المحاور المتجانسة الثلاثة تدور يوميات الكتاب ولوحاته ، فتقدم لنا صورة مترامية الاطراف لاناس الظل ، لهؤلاء الذين آثروا ان يكونوا مجرد ترس في آلة الحياة التي لا تتوقف عن الحركة . . لهؤلاء الذين اعطوا كل ما عندهم ولم تههم الحياة شيئا ، ولا حتى مجرد الشفاعة صغيرة . هؤلاء الكومبارس في عرض الحياة الكبيرهم شغل يحيى حقي الشاغل في هذا الكتاب ، لانهم هم الصناع الحقيقيون للحياة في حركتها الهادرة . فالمبارقة قد يأتون بالمعجزات ولكن الكومبارس وحدهم هم الذين تستمر بهم الحياة . . فيصوغون بذلك معجزة المعجزات . . معجزة الاستمرار العظيم . والكتاب كله كما يقول يحيى حقي في مقدمته « نابع من اهتمام فحنان للذين تراجعوا عن الاضواء . هكذا اراد لهم القدر او ارادوا هم لانفسهم . للملتحقين بالظل على المسرح وراء نجوم الفن ، في القرية ، في الشيخوخة ، في قبضة الفقر ، في مكتب منزو كأنه اصطلب حمار شغل ، وصف الكومبارس ينطبق عليهم جميعا في نظري ، رسمت في لوحات اناس منهم لاني احسنت ان قلوبهم لا تسهمها المראה ولا تضئها الحسرة . رضوا بحظهم واستراحوا لانهم سلكوا انفسهم في نظام الكون وحسدوا حكمته . فلولا الظل لما كان نور ، ولولا القرية لما كان وطن ، ولولا الشيخوخة لما كان شباب ، ولولا الفقر لما كان ثراء ، ولولا حمار الشغل لما تبختر الرهوان . فهم الشهادة والاستشهاد . يرتد عنهم البصر بسؤال يرتج له العقل . هل تكون جميعا مثلهم ؟ تقف وقفة الكومبارس من مسرحية ابطالها قوى خفية لا تدرکها الاسماع او الابصار » .

هكذا يدرك يحيى حقي بحس الفنان العظيم البعد الحقيقي الكامن خلف الصورة الظاهرة ، حيث يرى ان في كل منا بعض ملامح هؤلاء الذين تراجعوا عن الاضواء وآثروا الالتحاق بالظل . واننا مهما تقدمنا الى مناطق الضوء فهناك درجة من درجات الظل تطوينا تحت جناحها . كما يلمس بعض الملامح الشديدة الخصوصية في هذه الصورة . حين اناس الظل الى الاندغام في الكتلة البشرية الكبيرة . فالواحد منهم « مثل النحلة تموت اذا انفردت حتى وسط النعيم ، فهو لا يستطيع ان يعيش الا منمخيا وسط جماعة ، هي - فوق البيعة - متفجرة . . باقية في الظل قابلة « الا تتقدم خطوة واحدة فتقف تحت الضوء . لا بد له ان يقف في صف . . يلتحم كتفاه بدرابزين طويل من اكتاف اخرى . يتقبل الضغط من يمين ويسار ويضغط هو ايضا على اليمين وعلى اليسار ، وتظل قدماه تنبشان الارض حتى تقهر قوة الطرد وتستقر به وقفته المقلقة في العجز الرسوم له » ( ص ١٠ ) . فبرغم هذا الحنين العارم الى الاندماج في الكتلة البشرية الكبيرة بحيث يبدو الواحد منهم وكأنه جزء من الكتلة الضخمة التي ينتمى اليها ، نجد لكل منهم شخصيته المتميزة وملامحه المتفردة . . ومن هنا نجد ان « ناس في الظل » في حقيقته معرض انماط بشرية لا ينفذ . جياش بالحركة والتنوع . مليء بالاصوات المتميزة والطبائع المتنوعة . فيهم من يرضى بان يكون مجرد سدخانة لا هوية له ولا تفرد ، لا حضور له الا بحضور الجماعة التي ينضوي تحت لوانها ، يقبب اذا غابت ولا يحس في حضورها بتفرد . فهو مجرد رقم بين رتل من الارقام المنظمة المعالم . لا تميزه غير عين الفنان الخبير التي تلتقط التبر من بين آلاف الاحجار الفسيفية التي تشبهه اشد الشبه .

وفيه من شدته اضواء القمة ولكنه آثر ظلا بعينه . لا اي ظل بل ظل بعينه . عن طبيعة ضئيلة بالبذل مؤثرة للبقاء في الظل ، ( في الظل ) . وفيهم من رشحته كل امكانياته لذرى المجد لكنسه آثر العزلة ، عن عفة في النفس لا عن مرض ، عزله بنت رغبته في الذود عن كرامته في عالم مختل . مرفوض منه السى اقصى حد لا يملك حياله سوى ان يهيج من بلده محمومًا زائغ البصر مومتشي اليد اصفر الوجه ( وجه وصفة ) . وفيهم من وجد تحفته في رطوبة الظل وتحت ستره ، لو دفع الى الاضواء لتبخر مع ا نل ما يدور تحت الاضواء من صنعه ومن توجيهه ، وهو بشيبت بالظل ويدافع بضراوة عن مكانه فيه ، أشرس من أي عبقرى في الدفاع عن عبقريته التي لا تتحقق الا في الظل . من يحاول ان ينال منه او يزيحه عن مكانه الاثير فعضته هي العسر . تعصف به عصفا ولا تدر . فهو الذي يصوغ كل ما تختال به انديوك المرقشة في الصالونات اندولوماسيية ( وراء الستار ) . ومنهم ابن البلد الامين لثراث طويل من المهارات الحرفية ، تستثيره كلمة عابرة فتدفعه الى الانخالات بعيدا عن دولا ب الآلة الضخمة التي الف ان يكون ترسا من نروسها ، ليثبت ان ابن البلد ليس أقل مهارة من الجركس او الاجنبي . يجترح ما يشبه المعجزة ، ثم ما بلبث ان يعود الى جلسته كالكاتب المصري امسام قطع القماش الصغيرة يصنع منها خيمته بعد ان رد الاهانة او بالاحرى قبل التحدي وانتصر ( انتصار ابن البلد ) . وفيهم من دفعهم خطو الزمن الى ظل الحياة ، فذبّـ وهن الشيخوخة الى اوصالهم . . بعضهم استنام الى دعيتها يستروح في فيئها اطياف الذكريات ( وداع ) ، بينما حاول البعض الآخر ان يعزي النفس بالاندغام في الطبيعة والذوبان في طاقتها الباهرة على التجدد والانبثاق ( هذه القبيلة ) ، أما البعض الاخير فحاول ان يدفع عنه ثقل الشيخوخة بالانخراط في تيار الحياة يعب منها عبا وكأنه لا يزال شابا في العشرين من العمر ، لا يقيم وزنا ل ( قوس العمر ) وقد اشرف قاربه على الغيب والرفع بظلال الشفق التي تركت ندفها الثلجية فوق فروة الرأس وقسد اشتعل شيبا . وفي ( اقصير هو أم طويل ) يصبح الانسان الواقف في الظل هو الانسان عموما في هذا العمر العاصف . يحس بضالة العمر والامكانيات ازاء تلك الغابة المترامية الاطراف من الاحداث والمعارف . يحس ان ما يقبض عليه منها لا يزيد عن حجم حبة رمل فوق شاطئ فسيح . هذا الانسان يحس بنفسه في ظل هذا الوجود الرحب قصير العمر قصير النفس ضئيل المعرفة . . شيخ اشيب متخم اذا قاس نفسه باتسان العالم القديم بمعرفته المحدودة وحياته البرتبية . . وطفل رضيع جائع اذا ما تلفت حوله وشهد اصطخساب الاحداث والمعارف وتناميها السريع في عصرنا الحديث .

وهناك ايضا مجموعة كاملة من نساء الظل يقدمها لنا يحيى حقي في كيس واحد ( رشح ) يحتوي على كل النساء الطوافات على البيوت . يقرنهن بذكريات الطفولة ، فعالهن ما زال طفلا لم يشب عن الطوق بفسد . هن يرغم خروجهن الى ميدان العمل ما يزلن متوجسات هيبات . تغلبهن طبيعة المرأة غير العاملة قييدة البيت وهي ترى العالم بعين رجلها ومن خلاله . . فيهن بائعة العجن القروية التي تطفح المشوار سنيرا على الاقدام من قربتها البعيدة الى المدينة . وفيهن بائعة الصابون بنت المدينة وقد اخنت عليها الدنيا وتركها الهجرة على ملامحها بصماتها . وفيهن الهلة التي تجسد في بلاحتها الخائفة حزن المرأة وارهاقها . وهي تدب بعقل شارد ووجه مكبود ، تدور على البيوت تشحذ شيئا من الملابس القديمة لزوجها . وفيهن الحسود النحيلة المعصمة الواقعة في قبضة لعنة أبدية تطاردها دون ان تستطيع منها انفلاتا ، المدانة دوما دونما ذنب او جريرة . . كل هذه الانماط البشرية يجسدها لنا يحيى حقي في لوحة واحدة هي ( رشح ) ، تنز بذكريات الطفولة وبهذه الانماط النسوية معا .

هذا الحب الذي ارتفع الى مرتبة العشق والذهول عن الناس والاكتفاء بالذات هو الذي هوى بهما العاشق والعشوقة العاشقة .. الطباخ والخادمة .. اتي حضيض العنف الجسدي .. حينما انكشف سر الفتاة وأبقت انها الفضيحة ، صبت على نفسها البترول ، وأشعلت في جسدها النار .. هنا يدلف يحيى حقي من تلك اللحظة الشديدة الخصوصية الى شيء عام فيقول : « هؤلاء البنسات لا ينتحرن الا بطريقتين : بالفقز من النافذة في حالة الهياج الفطري ، او بحرق الجسد في حالة الغم الشديد . حين نكره البنت كل ما في الحياة وأول شيء فيها جسدها هي . او حالة العذاب النفسي الذي لا يطاق يهون بجانبه عذاب النار » ( ص ٢٨ ) . هنا يمزج يحيى حقي بين طبيعة الفتاة وثقافتها وأسلوبها في الحياة وطريقتها في التخلص منها معا . ويلمس في نفس الوقت صدى هذا الاسلوب العنيف في اغواء عشيقها الذي انتحر هو الآخر بطريقة تنطق بنفس العنف الجسدي . فحينما يؤوب النفس الى الظفرة ، ونحل الاقفال مكان الافوال ، يعود الى ذلك العنف الوحشي الذي يخنفي خلف قشرة الحضارة باقراصها المنومة وشرابيتها المسفوحة الدم وغير ذلك من الوسائل العصرية للانتحار .

بعد عالم الحب التجني الذي ظالما توارى في الظل يجوس بنا يحيى حقي أفقا جديدا يتوارى في الظل برغم وقوعه كل يوم تحت الاعين على الارصفة في الشوارع وبين المقاعد في المقاهي .. عالم اليانصيب باعتة ومشتهره .. ذلك العالم الغريب الذي يضم مجموعة من الحائزين دائما بثروة تهبط عليهم من السماء يشترتون الحلم الكبير بباحس الانمان . بقرش او بقرشين تريح مئات الجنيئات فتجهز على الفقر الكئيب وتبلغ المني . وكثير من هؤلاء يقربون الحلم بحياء .. يسوغه لهم المشرفون عليه بنوع من النفاق اللذيذ حينما بقرنون اليانصيب باسماء الجمعيات الخيرية . نوع من جر الرجل حتى تسوخ في رمال الاحلام الناعمة . ويكشف لنا يحيى حقي خبايا هذا العالم الغريب من خلال التناقض الصارخ الذي نهض عليه دعائم هذا العالم . فها هو فقير معدم رث الثياب متسخ السحنة يدعسي انه يهب الثروة لغيره .. يمد يده يفرض على المارة لقاء قرش واحد وعودا بشراء يهبط من السماء كالرحمة . بزج بهم في مقامرة يخوضونها وهم فقود غارقون في الكسل الذي يقلب الغين قافا فتصبح المقامرة مجرد مقامرة ، الخسارة فيها هيئة اما الريح اذا أقبل فوفير . زبائن هذا الفقير المعدم الذي يصفر حتى تجده حدثا صغيرا يتعثر في خطاه ويهرم حتى تجده عجوزا يتوكأ على عصاه ، لهم صور عديدة . ولكن كل واحد منهم نمط فد بين الناس وان تساوا جميعا في الايمان برب واحد اسمه الصدفة . بعضهم يشتري الورقة تخلصا من الحاح صبي ، وآخر يتخذ من شرائها سبيلا لمداعية أنوثة البانعة المليحة ، ينحدر منها الى ما بعدها ، وثالث ينتمي الى مجموعة الهواة القرارية ، الزبائن المدمنين ، الواقف بالساعات يتأمل الارقام ليختار من بينها رقما يبشر بالريح ، ومن يشتري مائة ورقة مرة واحدة ، كلمة ( سيري ) الفرنسية يجري بها لسانه وان اسم يتكلم هذه اللفة » ( ص ٨٥ ) .

عالم آخر من العوالم التي لا تزال في الظل برغم طول التحويم حولها يجوس بنا يحيى حقي في فيافيه البكر في لوحتين متعاقبتين ( ناس وناس ) و ( الى متى يظل هذا الانسان لفرا ؟ ) حيث يقدم لنا صورة عالم ظالما توارى في الظل .. صورة الفلاح وعالمه الذي ترقى فيه الاشياء الى مرتبة الطقوس .. لا يعرضها وحدها ولكن من خلال منهج يعتمد على المقابلة في ابراز تفاصيل الصورة من خلال النقيض ، فها هو الفلاح يواجه أهل البندر فيسلب لب الصقير وتبهره طريقتة في شرب الماء ، في الحديث ، في الاكل ، في النظر الى الاشياء . ويقدم لنا الفنان صورة هذا العالم البعيد عن الضوء في مقابلتها مع

وهناك أيضا من القابعين في الظل نمط غريب يضمه يحيى حقي ( في كيس واحد ) مع « ثقييل الدم ، والثرائر ، ومستودع النكت البايخة ، ومحب النكت القبيحة ، وهاوي التشكي لطلب الرثاء له . والبخيل النتن ، والمملق الكذوب ، والجبان الحفير الذي يعدل عن الصدر ليطعن الظهر ، والمفرور المفتون بشخصه ، والمتعالم الذي لا يعلو حكم على حكمه ، والممرور الرافض لكل شيء على طول الخط والمعداتي لكل سهل ، والراني للقدى في عين أخيه دون القشة في والمهباص من غير زفة ، والماند بالباطل ضد الحق الواضح ، والمعداتي لكل سهل ، والراني للقدى في عين أخيه دون القشة في عينه ، والذي لم يتحقق فتمسك » ( ص ٩٥ ) . وفي هذا الكيس الذي ينوي الفناء في البحر على طسول نضع أيضا - ليكون آخر البيعة - نمط غريبا من الناس ، انقلبت عنده احدى النعم الى نقیصة وبلوى . وأعني به صاحب الذاكرة القوية الباقية على عماهسا ، لا تفرق بين التوافه التي يجب اسفاطها والنافع الذي يجب اختزانه . فازدحت بلا فائدة منه كمخزن خرب لا يستطيع صاحبه له تنظيمها او ترتيبها . فنكدست فيه الاشياء حتى حجبت الاشياء النافعة وتوارت . وهناك أجزاء الظل في حياة المشاهير من الناس يقدمها لنا يحيى حقي بحساسية تكشف ما يدور في تلك المناطق الخبيثة البعيدة عن الضوء .. وهو يتحدث عن عبده الحامولي من زاوية جديدة التي أقصى حد ، لا تخطر على بال غير ذلك الفنان الكبير الذي خبر الحياة والناس وامتدت بصيرته الى اغوار الاشياء فيكشف لنا تواق عبده الحامولي العارم الى صعود درجة من درجات السلم الاجتهاعي في ( ١٢ مايو ١٩٠١ ) وكيف انعكس هذا التواق على حياته مع الخط فكاد ان يفصمها .

واذا اكنفينا بهذا القدر من تنويعات يحيى حقي على اناس الظل وحاولنا أن نتعرف على تنوعاته على الافاق البكر التي ما زالت في الظل سنجد نفس الشراء ، ونفس الحس المرهف في التقاط الافاق المتميزة التي غفلت عنها عشرات الاعين وتركتها سادرة في الظل . لم يقدمها كاتب من قبل الى رفعة الضوء . ولم يكشف بعض الذين حوموا بالقرب منها تلك الزاوية الهامة في النظر اليها .. الزاوية التي تفيض بالحب وبالفهم وبالخبرة العميقة بالموضوع . وأول هذه الافاق التي يقدمها يحيى حقي هو عالم الحب التحتي ان جاز التعبير .. حيث يجيش بانفعالات متميزة من الحب لم يتح لها من يريق عليها ضوء الفهم والتعبير .. ففي ( خبر ) .. يكشف لنا يحيى حقي خلف الخبر البسيط الذي لم يحتل من صفحة الحوادث غير سطور معدودات عالما من الحب التحتي .. يفيض بانفعالات تفوق تلك التي تنبض بها قصة « روميو وجوليت » ، تترك تفاصيل هذا العالم التحتي عليه ظلالها . كل تفاصيله تنطق بانه حب مهيب منسحق تحت وطأة الفقر ، تحلق فيه العاطفة المشبوبة الى ذروة الدرى واصحابها يتنون تحت كلال الفقر الثقيلة « لا هو ولا هي قرا قصة روميو وجوليت او سمع بها . هذا هو حب الاكابر المترفين في القصور . وكان لا بد ان تكتب للقراء قصة حب تماثلها . وككل قصص القراء لا تكون بالتأليف بل بالفعل ، ثم تكون اجدر الروائع بالذكر » ( ص ٣٩ ) .

في ( خبر ) يكتب يحيى حقي قصة حب القراء . فقد سئم طول تسكع الادب على ابواب الاغنياء يكتب قصصهم ويسجل عواطفهم . يكتبها بعد ان كتبها القراء انفسهم بالفعل قبل الكلمات ، فيقتحم لنا بقله عالما مدهشا من الحب الذي يولد على الارصفة ، ابن التماثل في الانسحاق تحت وطأة الحياة . « والسقوط من قمر القفة والرق في صورته الحديثة .. خدمة البيوت .. هو حب بين اسيرين مربوطين في سلسلة واحدة . لهفتها على الحب هي لهفة على الحرية . هي كل ما يملكه من احتجاج على قسوة القدر » ( ص ٣٧ )

عالم المدينة من جهة وفي انعكاسها على حدقة طفل صغير من جهة ثانية فتتلو الحكمتين أدق تفاصيل الصورة . حتى يستطيع ان ينطق بعدما حفرها في الاذهان لي طرح سؤاله الهام .. الى متى يظل هذا الانسان لفتا ؟! لا ينغفل الفن انى أغواره ، ولا يكشف لنا الادب عن جوهره .. فيسجل لنا مهارة فنانين كبيرين على تعرية روحه ، ويكشف لنا في نفس الوقت عن حس تدوي رفيع « أستطيع ان اشهد ان صلتى الروحية بالفلاح - الروحية لا الذهبية - ولدت على يد سيد درويش ومحمود مختار . لانهما تم يقتصر على الوصف الساذج او التهويل المفرط . ففي اعمالهما شحنة هائلة من التعبير الدرامي الشعري . سيد درويش رفع نهضة الفلاح في ضعفه الى بحة مجروفة صادرة عن قلب يقالب القدر بشجاعة . ومختار كشف لنا بجمال نمايله عن الصخرة الصلدة التي لم تنكسر رغم الضربات المتهالة عليها » ( ص ٥١ ) .. واذا كانت الموسيقى والنحت والرسم في لوحات ناجي استطاعت ان تقترب من روح الفلاح فان الادب لم يتمكن من ذلك بنفس التوفيق والعمق ، اذ بقي الفلاح فيه « كالشيخ المبهم ، كالفضية النظرية المسلم بها تفني فيها الرواية عن العائنة . رأينا مشكلة كامنة في المجتمع ، ولكن لم نره انسانا من لحم ودم . ندخل الى عقله وقلبه وتفهم عواطفه وآراءه » ( ص ٥٢ ) . هوت به الكتب الى حضيض الاشرار خسة ولؤما أو رفعت الى مصاف الملائكة الا برار دون ان تقدم جوهره . لا قبل الثورة ولا حتى بعدها . وربما كان هذا الحنين الى لقاء صورة الفلاح الحقيقية على الورق هو سر اعجاب يحيى حقي برواية عبد الحكيم قاسم ( ايام الانسان السبعة ) حيث قدمت فلاح اللحم والدم ، ودخلت بنا الى عقله وقلبه واحتضنت أفكاره ورؤاه وعواطفه . فيحى حقي يهتم أشد الاهتمام في أي عمل فني يقرأه بمدى عمق خبرة كاتبه بموضوعه وبالبعيد الانساني والروحي خلف الغلالة الخارجية والمظهر العرضي .

نتقل بعد هذا الى العوالم البكر التي يريق عليها يحيى حقي الضوء داعيا الى ضرورة ان تتحرك بعيدا عن الظل . فقد آن لنا ان نلتفت اليها وان نتعرف على اسرارها ، فقد اصبح كل عالم منها ميدان درس وتمحيص في بقاع أخرى من الارض . بينما لا تزال هذه العوالم عندنا غارقة في الظل ، تنبه لها المستشرقون من الاجانب ونحن لا نعرف عنها شيئا .. من هذه العوالم الفارقة في الظل عالم الباعة الجائلين ، ليس باعتبارهم اصحاب مشكلة ، لا بد ان تساهم البلدية في حلها ، ولكن باعتبارهم فنانين خلاقين لكن من طراز فريد ، يتوارثونه على مر الاجيال .. فن النداء على خضروات مصر وفواكهها الاصيلية ، فنداءات الباعة عنده في ( لا تين .. ولا عنب زين ) لها وقع خاص وطعم فريد . انها ليست مجرد فن مهضوم الحق والاهتمام ، يتوارثه مجموعة من آتاس الظل الذين ساهموا في صنع معجزة الاستمرار دون ان يلتفت اليهم أحد . ليست فنا منقوشا بازميل فوق حجر نقش الوصايا العشر على النار في الوادي المقدس طوى .. ولكنها ، وهذا هو الاهم ، لوحة التمجيد العربية لبنات مصر الاصيلية ، لوحة مستمرة خالدة لا ينال منها الزمان « خمسون سنة واكثر تضى فيتغير على مرها وجه المدينة وملامح المجتمع ، حتى كان الارض غير الارض والناس غير الناس . وهذا النداء هو هو ، باق خالد ، كأنما انفلتت من قبضة الزمان والاحداث . لس لحنه ونغمته فحسب بل واكاد اقول صوت المانع ايضا ، الحنجرية وحبال الصوت هي هي لم تتغير » ( ص ٦٠ ) .

فالانسان في مصر لا يرث المهنة والفن ولكنه يرث ايضا اقدار ابيه ، فنحن نعيش في مجتمع على درجة كبيرة من الاستقرار والاستاتيكية .. ربما لو دققنا البحث لوجدنا ان هذا البائع بنحدر من سلالة طويلة من البائعين ..

هذه اللوحة المستمرة الخالدة ، لا تغد أي شيء كيفما اتفق ، ولكنها تغلد فحسب ، نباتات مصر الاصيلية وفواكهها بعددها يحيى حقي ببراعة ثم يقول : « أرجو ان تلحظ معي ثم تقول لي هل انا مخطيء أم مصيب اذ اتيتك ان هذه هي خضروات مصر وفاكهتها

الاصيلية لكل منها نداء خالد . اما المستعدنه منها كالبطاطس والبسلة ، كالجوافة والمانغو والفراولة ، فانها لم يجد لها رغم تجاوزها لسن الرشد بكثير ، هسذا الملحن العبقري المجهول الذي يسلكها مع الخالدين . فنداء البائع لها وسط بقية النداءات الاصيلية الموارثة أشبه شيء بصفحة مكتوبة بأسلوب منظمس تقريري وسط كتاب يتلأ بأسلوب فني يصافح الشعر » ( ص ٦١ ) .. انه فن مصر ، لا يضرب كالأعمى كيفما اتفق ، ولكنه يسجل في وعي نادر صفحة منسية من تاريخ مصر .. والصفحة المنسية في تاريخ مصر كثيرة .. نقدم لنا ( انتصار ابن البلد ) واحدة منها ما زالت تلتحف الظل وعلينا ان نتحرك نحوها قبل فوات الاوان .. ونقدم لنا هذه الصفحة بقايا عالم الحرفيين القديم الموشك على الفرق .. يشد معه الى القاع تقاليد قديمة لها طعم الفطرة البكر . حيث كان لكل مهنة شيخ يشرب الصبيان على يده الصنعة ، ولا سمح لاي منهم بالاستقلال بعمله قبل ان يشهد نه شيخ الصنعة بالتمكن من اصولها .. حتى لا يختلط الحابل بالنابل ، ويجد الافاقون والمدعون الفرصة سانحة للاختلاط بأصحاب المهنة الاصلاء ، والاحتيال على الناس وتبديد مصالحهم .. وقد كانت تقاليد هذا النظام العتيق تنطوي على قدر كبير من الامانة للمهنة والحرص على سمعة العاملين بها . بصورة تدفع كل فرد من ابناءها الى الاحساس بكيانها والاعتزاز بمهنته « اعتزاز الاسرة بالطائفة التي تنتمي اليها ، وبالحي الذي تتجمع فيه يتبين في حفظها عن ظهر قلب وعداها على الاصابع لاسماء بقبضة الطوائف الاصولية ، من أول النحاسين حتى المغربلين مروراً بالكحكيين لكل طائفة تقاليد وشيخ وعربة في الموكب ليلة الرؤيا . كل من خرج منها يعد من السريحة من الناطقين او الشطار ، اذناهم من ينصب على الناس كالحواة . ومن يبيع خجله ليشتري به لقمته وهدمته ، كالمهراج المسخة العياذ بالله ، الشربه وبعيد » ( ص ٩٩ ) .

ومن العوالم البكر التي لا بد لها ان تتحرك بعيدا عن الظل هذا العالم السذي يقدمه يحيى حقي في لوحته ( كيف كان يعيش الناس ) حيث يريق الضوء على اوراق الانسان العادي ومذكرات الواقفين ابدا في الظل . فاذا كانت مذكرات المشهورين من الناس ذات دلالة فانها في الوقت نفسه ذات طعم تجريدي .. اما مذكرات البشر العاديين فان لها طعم فريد .. طعم الحياة في وضاعتها وطزاجتها .. في تدفقها وعرامتها .. بعيدا عن الجمل المتخلفة « والافكار « المستفة » يكتب الرجل العادي مذكراته ، فهو يكتبها لنفسه ، لا يبغى عرضها - مزهوا - على الآخرين . يجد في كتابتها لذة استعادة الحياة التي عاشها خطفا على مهل وفي كن من وحدة الذات وبعبدا عن الآخرين يضع حياته على الورق .. ربما ليعود اليها حتى يتذكر منها شيئا ، لكن هيئات . من هذه المذكرات تعرف عن الحياة اكثر مما تعرف عن مذكرات المشاهير الذين يتصورون ان عليهم دائما ان يرتفعوا فوق هذه الصفات .. فهي سجل الايام الماضية . منها وحدها تعرف كيف كان يعيش الناس ، ماذا كانوا يأكلون .. وماذا ينفقون .. الاسعار والاماكن المشهورة والتقاليد بكمالها وتامها موصوفة عندهم بدقة متناهية . السموات والاحلام تعرفها هي الاخرى من طريقة كتابتهم عن الوقائع والاحداث ، فليس لديهم من المكر ما يخفون به للهفة قبل ان تنفلت من سن القلم .. هنا ينهنا يحيى حقي الى مجال آخر من مجالات الظل البكر التي لم يقتحمها قلم من قبل .

فمن الانتصارات التي تمتاز بها دور النشر في الفسرب - وبخاصة في انكلترا - عثورها في قعر صندوق مترب مضت عليه اجيال لدى أسرة ، وهو منسى فسسي مخزن الكراكيب تحت حنية السقف ، على مذكرات كتبها رجل معهود من اوساط الناس لا شأنه بالسياسة او الفلسفة او النقد الادبي ، وانما جعل كل همه يوما بعد يوم ان يسجل فيها مشترياته من السوق وحوادث الحي والجيران والاشاعات الرائجة وآباء القضايا المثيرة ووصفه لاسميته في الحانات

واللهي» ( ص ٦٤ ) . فمن هذه المذكرات المغمورة لا يشم الناس رائحة الماضي فحسب ، بل ينهض الماضي امامهم من خلالها مجسما . يحسون به ويعرفونه معا . وهذا بالفصل ما نحسه ازاء النماذج الرائدة التي يقدمها يحيى حقي في هذا الضمار . سواء في مذكرات البقال الرومي التي تفوح منها رائحة زمان ، او في مذكرات ذلك العصامي المولود عام ١٨٧١ والتي جعل عنوانها ( حياتي ) . من هذه النماذج انى قدمها يحيى حقي في كتابه نحس لا بطعم الماضي ورائحته فحسب ، بل وحتى باللغة الاثيرة لديهم ، وبالقيم التي تحتل مكانا بارزا في سلم القيم الاجتماعي في هذا العصر . وعلى ذكر اللفظة نتقل الى آخر المجالات البكر التي حاول يحيى حقي ان يتحرك بها بعيدا عن الظل . . حيث دعا في ( لفة ملاية لف ) الى الاهتمام بدراسة تلك اللفة التي بقيت دائما في الظل والى التريث عندها والتعرف على سحرها وتنوعها وتأييدها على التجريد معا . فاللفظة العامة لفة حياة . . ليست مجرد وعاء للتعبير ولكنها فعالية مشاركة في صياغة هذه الحياة . . تتبادل معها التأثير والتأثير . . فهي لفة التفكير قبل ان تكون لفة التعبير . . لفة الصورة الحسية قبل ان تكون لفة التجريد ، تطوي في تنوع صورها وتعددها وفي جفافها وتفردا على موقف مدعيها من الحياة .

فليس صدفة ان « قاموسها ليس به عن الصفح والعلو الا عبارة واحدة . اما عن اصمام الضميمة والصر على طلب الثار واعداد العدة له فقد خصصت له عدة صفحات . ما السر في هذا الشح في الخير والاسراف في الشر ؟ قد يكون السبب ان الكلمة الحلوة ، لانها كريمة شريفة ، لا تحب التلون او الثرثرة » ( ص ١٢٢ ) . وقد يكون السبب ايضا ، وهذا تلميل اكثر مرارة من تلميل يحيى حقي المتسم بالطيبة والسامحة ، ان طبيعة الحياة في الشعب المصري مليئة بالقهر والاحباط . فاللفة العامة التي يصوغها الشعب بعيدا عن رقابة الولعين بالتجريدات لا تعرف في قاموسها عن العلو والصفح سوى « المسامح كريم » ، بينما خصصت للشر عشرات التعبيرات ، منها ( ناوي له ) و ( مستخلف له ) و ( راقصد له عليها ) و ( شايلها له ) و ( محسوشها له ) و ( حاطظها تحت ضره ) و ( مدكنها له ) ، وخصصت للانتقام المؤجل ( فاحت له ) و ( مرسب له ) و ( مخليه على عماء ) و ( ماسك له ابنه ) و ( انا وانت والزمن طويل ) . . الى غير ذلك من التعبيرات . هذه اللفة تحمل فسي تعبیراتها بصمات التراث من الظلم والقهر الذي عانى منه الشعب المصري ، وتفننه في التعبير عن توقه الى الانتقام من الفراء . حتى في كلمة الصفح الوحيدة نحس بوطة الظلم والعجز عن اخذ الحق ، وقد تسربت بوشاح من گرم المسامحة وكأنه يقول بيدي لا بيد عمرو ! الى هذه اللفة التي تنطوي تعبیراتها لا على كنز من الصور الحسية التوهجة بالحركة فحسب ، ولكن على كنز من السمات النفسية الاصيلة للشعب المصري ومن التواريخ القديمة له . . الى هذه اللفة ينهنا يحيى حقي وهو من عشاقها الكبار ، ومن اكثر الباحثين عن تعبیراتها الدالة وكلماتها الوحيدة . . يستعملها في كتاباته فتتعجب لهذه الكلمات الهامدة التي مرت عليك من قبل عشرات المرات دون ان تحسب بطلاقتها الهائلة على التعبير والابناء .

عن عالم الظل هذا ، باناسه وآفاقه البكر وعوالمه المشوقة للضوء يدور كتاب يحيى حقي ( ناس في الظل ) ، بلوحاته التي ترتفع في بعض الاحيان الى مستوى القصص القصيرة الناضجة . . ففي الكتاب لوحات تكاد تكون قصصا مكتملة مثل ( كيسه ) و ( مخلوق غريب ) و ( خير ) ، في هذه اللوحات الثلاثة لا يقترب يحيى حقي من روح الاقصوصة فحسب ولكن ايضا من شكلها . . فكل منها قصة متكاملة الموقف والشخصية . . في ( كيسه ) يربق الفنان الضوء على اعماق الشخصيات من خلال موقف شديد التركيز . يكشف عن سريرة شخصياتها الاربعة : الزوج والزوجة والفني وقريبه الفقير . . ولولا نمطية شخصيتي الزوج والزوجة التي تقدم القصة من خلالها

لارتفعت هذه اللوحة الى مستوى قصص يحيى حقي الناضجة . فيها بصيرة عميقة بالانسان وخبره فائقة بالوقف الذي تعالجه . . اما ( مخلوق عجيب ) فهي بالفعل قصة كاملة . . تقدم لنا - كما يطلب كونراد - أحد أفراد جماعة مغمورة هي جماعة العزاب الساهين عن انفسهم ، من خلال وعي حاد بالتفرد الانساني لابن هذه الجماعة ، وهو يستيقظ فجأة تدفق الحياة في كيان صبي صغير اقتحم عليه عالمه الوحش ، وفجر في داخله ينايع الحياة التي نبضت تحت وطأة الوحدة والدوران حول الذات واستهلاك الحياة دون استيلاء حياة او الحذب على الحياة . اما ( خير ) فانها قصة حب من ارفع طراز تصف بدقة متناهية صفاء هذه العاطفة ونقاها وهي تربط طبساح بخادمة . . هي قصة « روميو وجولييت » الفقراء كما تحدثنا عنها من قبل .

ولا يقتفي الكتاب بهذا . . ففيه معاقرة صافية للموسيقى . . ففي ( في الظل ) حديث خبير عن الموسيقى . . تتحول فيه الموسيقى الى حس خالص . . تفعل في النفس فعل السحر ، فتكاد تسمع وهو بصف لك موسيقى زكريا احمد او رباب السنباطي صوت الموسيقى بتدقيق في الذنك ، بنض تحت جلد الكلمات ، يعلو حتى يذاق ، وينخفض حتى يخفت وتحسس الاذان صدها . لا تسمع موسيقى الانغام وحدها ، بل موسيقى الكلمات التي تلقى على النغمة الضوء ، تتلونها وتكشف عن اصولها . فيحيى حقي مرهف الاحساس بالموسيقى ، له كتاب باكملة - ( تعالى معي الى الكونسير ) - عن خفاياها وآداب الاستماع اليها ، يتحدث عنها حديث العاشق الخبير . نحس بخبرته وهو يقارن بين موسيقى زكريا احمد والسنباطي والفصيحجي . . وينتصر اوسيقى الفصيحجي في لحنه الشهير « ان كنت اسامح » . . ونحس بخبرته وهو يتحدث في ( وداع ) عن عاشق الموسيقى الذي دنت الشيخوخة في اوصاله ، حديث مدهش اندغمت فيه موسيقى النغم في موسيقى الروح فصارت شيئا واحدا .

وعنى الكتاب بالنماذج والوضوعات قمرين غناه بالكشوف والاضافات الفنية . . فبرغم انه كتاب يوميات يطفى عليه العنصر التاملي والنثري فانه اقرب الى العمل الفني اسلوبا وروحا . . يشير كل قضاياه من خلال التجسيد الحسى . . ولا غرو . . فيحيى حقي فنان ، وليس كالفنان ابدا عزوفا عن تصديق رأس الفارئ بالتحليلات الفكرية الجافة . فالفكر عنده ليس هيكلًا عظيما ندب على قديمين ولكنه مخلوق حي مجسم قادر على المشى والجري والقفز والانطلاق في معمعان الحياة . فهو حين يريد ان يقول لك عن الصحافة التي تقرأها . . صحافة من ؟ . . تحمي وتخدم من يهتم بالسياسة ومن يعزف عليها . فمن خلال لقطه حية متناهية الصغر يضع الفنان في ( خيار وفاقوس ) كل النقط على الحروف . . ويقدم ما هو اغنى بكثير من مجرد تعليق او تحليل فكري . . لانه تعليق وتحليل انساني . يعرض للاسلوب الذي تتناول به الصحافة من يجرم عليه القوم ومن يخطيء من المامة ، فانت ترى ان ملطمه على القوم من وجهاء الوظائف والثقافة والمركز الاجتماعي . اما تنشر مع تكتم الاسماء والعناوين ، حماية لهم من الفضيحة . اما الفضيحة ام جلاجل فمن نصيب المقطوعين من شجرة . من نصيب الفقراء والبسطاء من عامة الشعب كان ليس لهم كرامة تستحق ان تصان ، ( ص ٤٢ ) .

فهو عندما يتحدث عن ظاهرة عامة او يريد ان يخرج فكره لها طابع كلي لا يلجا الى التعميمات والتجريدات . وانما يجسدها من خلال صورة موهلة في التفرد والحسية . فالفردى والحسى هما طريق الى العام المجرد . . وحينما يرغب في ان يلقى لك بمقولة خالصة فانه يلجا الى حيلة ماهرة . . فوسط نشوة حسية يأخذك على جناحها حتى لا تستطيع ان تعصى له امرا . . وسط تدله في هوى شبيه بظل بعدد لك فضائله ويجسد لك مزاياه حتى لتكاد تمد يدك من بين السطور فتلمسه لمسا . وسط هذا الجويدس لك - بين قوسين - الحقيقة النقيض من جملة اعترافية خاطفة . . وكأنه يضمنك ضدها .

## المطر الأول

الحلم غزال يرتاد تخوم الصحراء ..  
والحزن سماء ..  
هدأت عاصفة البحر ومقهى الريح ..  
على كل الطرقات  
يرجف والخوف نوارس مسحوره ..  
أتصددها فتسيل على وجهي الشرفات  
وتفني الكأس المكسوره ..  
هدأت عاصفة البحر  
ووجهي في كف الريح ..

\*\*\*

كنا نقرأ بوشكين ..  
كان قطارا يرحل صوب الشرق  
والاشجار ..  
تركض عائدة نحو البيت ..  
لم نسأل عن اسمينا ..  
كنا في النافذة المكسورة وجهين  
حين بدأت تفني  
انهمرت أمطار الرؤيا  
وعرفتك حزنا أخضر يورق في الغابات  
وحيننا بلثه المطر الاول  
ورأيت الوجه العائد في النافذة المكوره  
نصفين ..

حين انتهت الأغنية ، أدركت  
ان على الارض سماء أخرى

حدثت الأغنية عنها ..  
فاحترق الزمار  
« يا أعذب جرح في صدري  
يا نبعا من نار .. »

\*\*\*

كنا نقرأ بوشكين ..  
وبقايا الصيف الراحل فوق ذرى الأشجار  
حلم أو نار ..  
والذهب الشاحب يخفق  
في وجه الاسحار ..

اذكر لا اذكر  
الاريش الكروان الاحمر ..  
رف على كف الجلم  
وطار ..

\*\*\*

كنا نقرأ بوشكين  
كان قطارا اتعبه الشوق  
يرحل صوب الشرق ..  
والاشجار ..  
تركض عائدة نحو البيت  
ونسيت ..  
أذكر ..

لا اذكر الا بوشكين  
والحلم الخائف في  
وجه ..  
الانسان

### أرشد توفيق

الموصل ( العراق )

العامة والنصحي وفي الكتاب كنوز منها .. فهو كتاب ادبي من طراز فريد . يخدم النثر العربي ويحتفي باللغة العربية اجل احتفاء . يحقق فيه يحيى حتى دعوته الى التحديد اللغوي والى العتمية اللغوية . ليس فيه شيء الا وموصوف باكثر من صفة تميزه عن عشرات الاشياء المشابهة . وتتواتر الصفات في بعض الاحيان حتى تبلغ السبع صفات او تزيد « رجل مماطل ، مخادع ، مراوغ ، مكبر ، غويط ، دحلاب ، ساه تحته دواه ، امي ولكنه في ترتيب الاشكالات القانونية ابرع من محام امام محكمة النقض » لا نظن ان هذه ترادفات يمكن ان تفني احداها عن الاخرى ، فكل صفة دورها ومساهمتها في تحديد ادق تفاصيل الصورة . وفي بعض الاحيان تبلغ صفحات الوصف فيه حد الإعجاز . فهو يصف في اكثر من صفحة كاملة ( ص ٧٤ ) فتحس واثت تقراه بانك امام ضرب من ضروب الإعجاز في اللغة والخبرة والملاحظة وهذه السمات الثلاثة ، الخبرة العميقة بالموضوع والملاحظة الدقيقة الحساسة له واللغة التي تصافح الشعر ، هي سمات هذا الكتاب الاصيل ، بها ومن خلالها قدم لنا الفنان عالما كاملا يعيش في الظل ... كل شيء فيه عليه مسحة من هذا الظل .. حتى الاماكن التي يكثر ذكرها في هذا الكتاب هي سمات هذا الكتاب الاصيل ، بها ومر خلالها قدم لنا الفنان عالما كاملا يعيش في الظل .. كل شيء فيه عليه مسحة من هذا الظل .. حتى الاماكن التي يكثر ذكرها في هذا الكتاب هي ناطق الظل .. الفواحة بالتاريخ المثقلة بظل رؤى كثيفة . لا يجهضها الضوء في وسط المدينة . لا تدوسها الاقدام الغافلة دون ان تنتبه الى سرها الدفين ، لا ينال من ثرائها املاق المارة فيها ، بل يضيء على ظلها وظلالها .. ظلت ككل شيء في العالم الذي يجوسه هذا الكتاب تسبح في مفيب دائم حتى قبض لها القلم الفنان الذي اراق عليها من ضوء فهمه وحساسيته دون ان يجهز علسي ما بها من سحر وشاعرية . القاهرة

صبري حافظ

وكانه يعي انه لا تملك ان تعارضها ، يدسها في جملة اعتراضية خاطفة وكانه بذلك يهون لك من شأنها ، او كأنها بديهية لا تسأهل حتى ان يضعها في قلب السباق . طوبه في الطريق ، يزيحها يقدمه ويضي فلا داعي لان تتعثر فيها حتى تدرك سخفها وسماحتها . ففي سياق حديث طويل عن موسيقى زكريا احمد يستمر في وصف موسيقاه « لا يفرنك ابتداءه بطبقة واطنة تخشى معها ان تلزم الارض ، انه سيرفع النغمة بعد قليل الى اعلى الطبقات فيتبع للصوت ان يكشف كل قدراته . حينئذ تخلق معه في السماء حتى تكاد قلوبنا تثب الى افواهنا من شدة النشوة ( جميع اغانينا اليوم تلتزم الطبقات الارضية بلا تحليق ) اذن لا بد من شيء من الراحة .. هذا هو الهنك والذئك يجيده زكريا ايضا .. التمايل معه يا حبيبي على الجنين كأننا في حلقة ذكر الحان زكريا منبعثة من العاطفة والعلم والصنعة من تعاون حميد فلا غلبة لواحد منها على غيره » ( ص ١٥ ) وسط هذا الحديث يضع يحيى حتى حقيقة خطيرة ولكن بطريقة ماهرة . فيها من حنكة الفنان وحساسيته الكثير « جميع اغانينا اليوم تلتزم الطبقات الارضية بلا تحليق » حقيقة تمر بها وكأنها بديهية .. وهذه الحيلة الماهرة تكرر اكثر من مرة من الكتاب .. يقول في مستهل ( يا نصيب ) « لا بد ان اجعل بدء كلامي استشارته تعجبك واستمبارك بمنظر هذا الرجل المنسق داخل جلبابه الرث .. فقد شبعنا من الاستعمار الفارغ للمفارقات البيئية ، للحكم السهل ومصمص الشفاه ، الارض المطروقة ، عبرتها قبل قدمك آلاف الاقدام ( لا يزال في ادبنا وبخاصة في شعرنا .. كثير من البريق الكاذب لمثل هذا اللث والعمج ) » .. هذه حقيقة خطيرة اخرى يقدمها يحيى حتى لنا بنفس البساطة وبنفس النهج .. وفي الكتاب من هذا النمط الكثير فيحيى حتى ولوج بالجمال الاعتراضية .. وهذا الولوج في اعتقادي ابن التصالح الحميم بالروح المصرية وبأسلوبها الفريد في التعبير والتفكير .. وابن اهتمامه المتزايد بأسرار اللغتين